الأصوات العربية ودلالاتها

علي أحمد النبوت

عضو هيئة التدريس

قسم اللغة العربية جامعة مصراته

مقدمة:

لا جرم أنّ اللغة هي من أعظم الاكتشافات الإنسانية في تاريخ الاكتشاف والإنسانية؛ بل هي الجسر الذي تعبُر من خلاله الإنسانية كلّها للتعارف والتآلف والتفاهم والتعاون والتعايش. . ثمّ السلام والاحترام والوئام.

من ذلك تجيء أهمية البحث في هذا الاكتشاف العظيم؛ أصله، ومنشأه، وأساسه وحدّه، ونُموّه، ومُبتغاه.

فمن لدن وُجد الإنسان ولسانه مَنَاطُ فكره ومُنَاطٌ بتفكيره، فبه يفكر، وبه يدبّر وبه يعبّر، وبه يصوّر ما في الأذهان.

وإذا كانت اللغة ـ أيّ لغة ـ في حدّها وذاتها ما هي إلاّ أصواتٌ ومعانٍ، فإن أصوات العربية في حدّها تكاد تكون لغةً قائمةً بذاتها بما تُوحيه من دلالات.

فالأصوات مادّة اللغة، تلك حقيقة. ولا ريب، فما اللغة في طبيعتها إلا أصواتٌ دالّةٌ على معانٍ، بل إنّ من الأصوات ما يكون لوحده معانٍ دالة؛ كالصراخ؛ والبكاء والقهقهة. ونحوها، وما لغة الإنسان إلاّ محض أصوات مصبوغة من الشعور والقصد يعبر بها عن الدلالة المعنوية التي هي فيه.

وفي هذا البحث أَجْرَيْتُ القلم في سمةٍ دقيقة من سمات العربية الفريدة والتي قلّ ما توجد في لغة إنسانية غيرها. ألا وهي: "دلالة أصواتها" فتناولت فيه حدّ الصوت وحدّ الدلالة، وماهية الصوت وماهية الدلالة، وما بين الاثنين من صلة وعلاقة من خلال بعض السمات كالنبر والتنغيم والمقطع الصوتي والوحدة الصوتية. ونحوها.

الصوت واللغة:

للجانب الصوتي أهمية كبرى في الدراسات اللغوية والأبحاث، فهو يُبرز التغيُّرات الصوتية في اللغة، ومن ثمّ تُصبح تلك التغيرات جزءًا لا يتجزأ من أنظمة اللغات.

ويهتم الدرس الصوتي عمومًا بدراسة أصوات اللغة، ويشمل كلا النوعين المعروفين باسم: علم الأصوات العام، وعلم الفونيم (الوحدة الصوتية) وينقسم علم الأصوات العام إلى ثلاثة أقسام، هي: "علم الأصوات النطقي، وعلم الأصوات الفيزيائي أو الطبيعي، وعلم الأصوات السمعي".[١]

ويقوم علم الأصوات النطقي أساسا على تحديد مخارج الأصوات، وبيان الصفات الصوتية التي تشكل الصوت، بحيث يعطينا وصفا موضعيا لهذه الأصوات وكيفية إنتاجها وتصنيفها، وهذا التصنيف قد تكفلت به الأبجدية الصوتية العالمية، التي تشتمل إلى حد ما على التنوعات الأساسية الممكنة لأصوات الكلام، وتصنيفها على حسب المخارج الصوتية المستعملة مع كل منها، والأوضاع التي تتعرض لها هذه المخارج.

ويهتم علم الأصوات الفيزيائي بدراسة التركيب الطبيعي للأصوات، فهو بذلك يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات الهواء في الجهاز النطقي المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز.

أمّا علم الأصوات السمعي فيختص بدراسة مدى إدراك الآذان والأعضاء الملحقة بها كما يدرس سيكولوجية الإدراك.

أما الصوت الإنساني عامة فإنه ينشأ من ذبذبات مصدرها حنجرته، فعند اندفاع الهواء من الرئتين يمر بالحنجرة فيُحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم أو الأذن ينتقل الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن.

وصوت الإنسان دقيق التركيب إذ يتركب من أنواع مختلفة من الشدّة والرخاوة ومن درجات صوتية متباينة، فليس صوت الإنسان في أثناء حديثه على درجة واحدة دائمة؛ بل هو مختلف الشدّة والدرجة، فالإنسان حين يتكلم تتغير درجات صوته عند كل مقطع تقريبا، والفرق بين درجات الصوت عند النداء مثلا أو الغناء أبعد منه عند الكلام، كما أن لكل إنسان نبرة صوتية خاصة به تميّزه عن صوت غيره من بني الإنسان.

وتتوقف درجة صوت المرء على سنه وجنسه، فالأطفال والنساء أحد صوتا من الرجال، وذلك لأنّ الوترين الصوتيين في الأطفال والنساء أقصر وأقل ضخامة، وهذا يؤدي إلى زيادة في سرعتهما وعدد ذبذباتهما في الثانية، والطفل عندما يصل إلى البلوغ يتضخّم وتراه الصوتيان فجأة كما يطولان ويترتب على ذلك غلظة في صوته يجعله أقرب إلى صوت الرجال منه إلى النساء.

ويُقدّر طول الوتر الصوتي في الإنسان البالغ حوالي (٢٣) ملم، ويمتد أحيانا حتى يصل (٧٢) ملم، وعدد الذبذبات في الحنجرة قد يصل في الغناء إلى مئات الذبذبات، ولكنه في الكلام لا تكاد تتجاوز الذبذبات مائتين أو ما يقرب من هذا.

أما أعضاء النطق فهي اثنا عشر عضوا: القصبة الهوائية، والرئتان، والحنجرة والوتران الصوتيان، والحلق، واللهاة، والتجويف الأنفي، والحنك، واللسان، والأسنان والشفتان.

ويتكون الصوت في مواضع من اللسان، والحلق، والسن، والنطع،[٢] والشفة،وهذه المواضع هي مخارجها، وليس لصوت أن يخرقها جميعا إلا الذي هو في لسان العرب.

والصوت الطبيعي هو الذي يتّسع مخرجه لهواء الصوت، فلا يحتك بجدار الحلق ولا يلامس طرف اللسان، ولا غيرهما من سائر المخارج، وتجيء من بعده

أصوات الحلق،[٣] ثم تعقبها باقي الأصوات؛ حسب ارتقاء أوتار الصوت، واختلاف الألسنة في إسقاط الأصوات عليها.

كيفية حدوث الصوت:

الأصوات هي النغمات التي تحدث نتيجة لاهتزاز الأجسام، وهذه الاهتزازات تنتقل في الهواء أو في أي وسط مادي تصل إلى عضو السمع، وهو الأذن في الإنسان فتقوم الأذن بنقل هذه الاهتزازات بعد تكبيرها عن طريق أعصاب السمع، فيعمل المخ على ترجمة هذه الاهتزازات إلى أصوات أو نغمات.

يقول إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية: "أثبت علماء الصوت بالتجربة أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز، على أن تلك الهزات لا تدرك بالعين في بعض الحالات، كما أثبتوا أن هزات مصدر الصوت تنتقل في وسط غازي أو سائل أو صلب حتى تصل إلى الأذن الإنسانية، والهواء هو ذلك الوسط الذي تنتقل خلاله الهزات على شكل موجات من مصدر الصوت إلى الأسماع".[٤]

أما خروج الصوت فقد وصفها ابن جنّي وصفا دقيقا في مقدمة كتابه "سر صناعة الإعراب" فقال: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"[٥] ثم أعقب ابن جني ذلك بما بيّن أجراس الحروف من اختلاف فأردف: "وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها . . . ألا ترى أنّك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جرسًا ما فإن انتقلت منه راجعا عنه أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول ".[٦]

ولعلي لا أبالغ إن قلت أن ليس في ألسنة الناس كلها لسانٌ تامٌ كالذي عند العرب، فليس من صوت إلاّ وهو منه، وليس من حرف إلا وهو فيه، وليس من

تركيب إلا وهو له. . وبالأصوات والحروف والتراكيب يقاس اللسان بغيره، ويميز عن غيره في نظم اللغة وأساليب البيان.

وفي هذا يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب " لو تدبرنا اختلاف ألسنة الناس بما رحبت الأرض لألفينا أن ليس لقوم منهم تمام اللسان فبعض القبائل الأفريقية قد خلت ألسنتها من الأصوات الشفوية (الفاء، والباء، والميم والواو) والجماعات الهندية التي تقطن في أمريكا اللاتينية لا ينطقون أصوات (الباء والفاء والجيم، والدال، والواو) وقسم كبير من أستراليا لا يجدون إلى أصوات الصفير سبيلا، ولا يهتدون إلى حروف (الشين والثاء والطاء).[٧]

وليس هذا الأمر بعجيب فحتّى لغات الإنسان القديمة خلا بعضها من الحروف كما خلا من الأصوات وفي ذلك يقول الدكتور علي فهمي خشيم في كتابه "العرب والهيروغليفية"" ففي عام (١٥٠٥) صدر كتاب *Hieroglyphic* وفيه حددت الهيروغليفية بأنّها لغة موحى بها كلية، كونية، لغة أفكار بعيدة عن أي صوت أو حرف، لا يفهمها سوى الأتباع".[٨]

الأصوات العربية (صفاتها ومخارجها) :

قبل أن أتعرّض لدلالة الأصوات العربية منفردة ومجتمعة. . أرى أنه من تمام البحث توصيفها ومخارجها، وقبل ذلك أشير - بتعريف موجز - إلى الفرق بينها وبين الحروف إزالة لأي غموض بينهما أو لبس، فإني - وخلال تدريسي لمادة علم اللغة - وجدت كثيرا من الطلبة لا يُفرّقون - في نقاشاتهم وإجاباتهم - بين ماهية الحروف وماهية الأصوات.

فالأصوات هي موسيقى الحروف وأجراسها، وأداؤها بالنطق للأسماع. .

أما الحروف فهي حد الأصوات وغايتها وصورتها، ورسمها في مطمور أو قرطاس.

قال تعالى: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير".[٩]

وقال جل شأنه: "يُحرّفون الكلم عن مواضعه". [١٠]

أولا: صفاتها:

تفاوت علماء اللغة في تقسيم الأصوات باعتبار صفاتها، فمنهم من بسط ومنهم من أقلل، لكن الأصول عند أهل العلم والاختصاص عشرون نوعا، وهي: الهمس والجهر، والشدة، والرخاوة، وبين بين، والاستعلاء، والاستفال، والإطباق والانفتاح، والتفخيم، والترقيق، والتفشي، والتكرير، والاستطالة، والغنة، والذلاقة، والمد واللين، والصفير، والقلقلة، وسأتناول في الجدول التالي كلاً منها بشيء من **التفصيل:**

ت	الصفة	تعريفه	حروفه
١	المهموس	هو الذي ضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى النفَسُ معه.	هـ، ح، خ، ك، ش س ت، ص، ث، ف
٢	المجهور	هو الذي أشبع الاعتماد في موضعه ومُنِع النفَسُ أن يجري معه.	كل ما كان غير مهموس
٣	الشديد	هو الذي يمتنع الصوت أن يجري فيه.	ء، ق، ج، ط، ت، د ب
٤	الرخو	هو الذي يجري فيه الصوت لضعف الاعتماد على مخرجه، فإن كان بنَفَس قليل فهو الرخو المجهور، وإن هو بنَفَس كثير فذلك المهموس.	ذ، ظ، غ، ض، ز هـ ح، خ، ش، س، ت ص، ث
٥	الصوت	هو المتوسط بين الرخاوة والشدة، فلا	ل، ن، ع، م، ر.

			١١
	الذي بين بين	يكتمل فيه احتباس الصوت ولا جريه.	
٦	الاستعلاء	هو أن يستعلي اللسان عند النطق بالحرف إلى جهة الحنك العليا.	خ، ص، ض غ، ط ق ظ،
٧	الاستفال	هو ضد الاستعلاء.	كل الحروف خلا السبعة المتقدمة
٨	الإطباق	هو انحصار الصوت فيما بين اللسان والحنك	ط، ظ، ص، ض
٩	الانفتاح	هو عدم انحصار الصوت بين وسط اللسان والحنك عند النطق بالحرف	كل الحروف ما عدا الأربعة المطبقة
١٠	التفخيم	هو تغليظ الحرف بحيث يمتلئ الفم بصداه.	وهي مفخمة كلها
١١	الترقيق	هو نحافة الحرف بحيث لا يمتلئ الفم صداه.	
١٢	التفشي	هو كثرة انتشار خروج الهواء بين	الشين

		اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق.	
١٣	التكرير	ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحروف	وحرفه الراء فقط
١٤	الاستطالة	امتداد الصوت من أول اللسان إلى آخره.	وحرفها الضاد
١٥	الغنة	صوت يخرج من الخيشوم-أقصى الأنف- بحيث لو أمسك المتكلم على أنفه حبست.	وحروفها النون والميم
١٦	الذلاقة	أصوات يخرج بعضها من ذلق اللسان وبعضها من ذلق الشفة.	ف، ر، م، ن ل، ب
١٧	المد واللين	إطالة الصوت بحرف من أحرف المد واللين (ا و ي) ومخرج الحرف إذا اتسع، لان وامتد	ا، و، ي
١٨	الصفير	صوت يخرج مع الحرف يشبه صفير الطائر.	س، ص، ز

١٩	القلقلة	صوت زائد يحدث بفتح مخرج الحرف بتصويت، ويشترط أن يكون شديدا جهريا.	ق ط ب ج د. [١٢]

ثانيا: مخارجها:

ت	الصوت	المخـرج
١	ا، و، ي	تخرج من جوف الصدر، وتنتهي بانتهاء هواء الفم.
٢	ء ، هـ	تخرج من أقصى الحلق؛ غير أن الهمزة أدخل فيه.
٣	ع، ح	يخرجان من وسط الحلق؛ والعين أدخل.
٤	غ، خ	يخرجان من أدنى الحلق إلى الفم؛ والغين أدخل.
٥	ق	يخرج من بين أقصى اللسان وما فوقه من الحنك.
٦	ك	يخرج مما يلي مخرج القاف من اللسان والحنك.
٧	ج، ش	يخرجان من بين وسط اللسان وما فوقه من الحنك؛ والجيم أدخل.
٨	ض (القديمة)	يخرج من بين جانب اللسان من أقصاه إلى قرب رأسه وبين ما يقابل ذلك من الأضراس العليا؛ فتضم أكثر حافة اللسان.
٩	ل	يخرج من بين جانب اللسان حيث ينتهي مخرج الضاد إلى منتهى طرفه وبين ما يقابل ذلك من الحنك الأعلى فوق الأسنان.

١٠	ر، ن	يخرجان من بين طرف اللسان إلى رأسه وبين لثة الثنيتين العلويتين؛ غير أن الراء أدخل في ظهر اللسان قليلا.
١١	ط، د، ت	تخرج من بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا مصعِّدا إلى الحنك؛ غير أن الطاء أدخل، والتاء أخرج.
١٢	ص، س، ز	تخرج من بين رأس اللسان والثنايا من غير أن يتصل بها الحرف وإنما يحاذيها؛ غير أن الصاد أدخل والزاي أخرج.
١٣	ظ، ذ، ث	تخرج من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا.
١٤	ف	يخرج من الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.
١٥	ب، م	يخرجان منطبقين من بين الشفتين؛ غير أن الباء أدخل. ١٣

تلك كانت صورةً مختصرةً للأصوات العربية صفاتها ومخارجها، وأتحول فيما يلي إلى الدلالة لفظا ومعنى توطئة لِلُبِّ البحث.

ماهية الدلالة:

بما أن هذا البحث يدرس العلاقة بين الصوت والدلالة. . فإني أرى أنّه من تمام البحث أنْ أسوق فيه كفلاً من مفهوم الدلالة.

جاء في لسان العرب: "الاسم الدِّلالة والدَّلالة بالكسر والفتح والدلولة والدليلي قال سيبويه: والدليلى عِلمُه بالدلالة ورسوخه فيها ".[١٤]

ويقال: "دلهُ عليه دِلاَلَة إليه"[١٥] وقد دله على الطريق يدله دَلالة ودِلالة ودلولة والفتح أعلى.[١٦]

وقد وردت لها معانٍ أخرى منها:أنها التسديد يقال: دل عليه دلالة فاندل: سدده إليه، وهي فهم أمر من أمر أو فهم شيء بواسطة شيء فالشيء الأول هو المدلول والثاني هو الدال؛ كدلالة إنسان على معناه الذي هو الذات فاللفظ هو الدال، والذات هي المدلول، وفهم الذات من اللفظ هو معني الدلالة".

ومنها أنها: إبانة الشيء بأمارة تعلمها يقال : دللت فلانا على الطريق والدليل: الأمارة في الشيء وهي كذلك الهداية والتوجيه والإرشاد.

ومنها أنها: " كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والأول هو الدال والثاني هو المدلول ".

وهذا تعريف نجده قريبا إلي ما نحن بصدد البحث فيه؛ حيث إننا نحتاج لمعرفة المعنى إلي معرفة اللفظ أي نحتاج لمعرفة المدلول إلى معرفة الدال ولا جرم هما في علم النحو كالمبتدأ والخبر أو في علم المنطق كالمقدمة ونتيجتها.

ولم يظهر مصطلح "علم الدلالة" إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر على يد اللساني الفرنسي "بريال" سنة ١٨٩٧ الذي أورده في كتابه (مقالات في علم الدلالة).

والأصل في الكلمة يعود إلي الكلمة اليونانية *Seme* التي تعني "علامة" فالدلالة على الشيء علامة عليه و *Seme* *قريبة* اللفظ من الكلمة العربية "سمة" أي "علامة" والمشتقة من الأصل (وسم) الشيء أي علّمه أي جعل له علامة، على رأي نحاة الكوفة.

ولقد اختلف المترجمون في مقابلة مصطلح *Sémantique* بمصطلح عربي فمنهم من يقابله بعلم المعنى، ومنهم من يقابله بمصطلح دلالة الألفاظ، ولكن الشائع اليوم هو مصطلح علم الدلالة.

ولعلم الدلالة تعريفات عديدة منها أنه: "دراسة المعني أو العلم الذي يدرس المعني أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعني أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط والواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعني".[١٧]

أما الدلالة عند " دي سوسير" فإنها: "عبارة عن العلاقة التي تربط الدال بالمدلول داخل العلامة اللسانية ".[١٨]

أما عند "بن فست" فيعرفها بأنها: "جوهر اللغة نفسها ومن أهم القضايا اللغوية علي الإطلاق".[١٩]

وعلى هذا فهي علم يعني بدراسة الدلالات المحتملة والمتنوعة للرمز اللغوي (الكلمة) فإن للكلمة معنى واحد في الأصل بيد أن دلالاتها تتنوع حسب القصد والسياق.

ومعظم هذه التعريفات تُفضي إلي أن علم الدلالة يدرس المعاني المحتملة من خلال اللفظ.

الصوت والدلالة:

تبدو علاقة الصوت بالدلالة جلية في ألفاظ العربية؛ لكن من الأصوات ما يتغير في الكلمة ذاتها دون أن تتغير دلالتها؛ وذلك مثل: الصّراط مقابل السّراط والسّقر مقابل الزقر، وهو ما يسمي كيفيات أو وجهات وآراء.

وبعض الأصوات يؤدي دورا في الكلمة وبعضها الأخر لا يؤدي أي دور، كما أن الكلمة قد يتغير معناها بمجرد تغير حركة من حركاتها فـ(رَفَضَ)

بثلاث فتحات متوالية غير (رُفِضَ) بضم وكسر وفتح، وهكذا فإن كل صوت أو حركة له دلالة معينة يوحي بها.

وفي السياق نفسه يقول السيوطي في كتابه المزهر: "وكثيرا ما تكون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، ومن ذلك: الخضْم والقضْم، فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثّاء ونحوها، والقضم لأكل الصلب واليابس وقيل القضم للدابة والخضم للإنسان ومنه يقال: قضمت الدابة شعيرها، وقال غيره القضم بأطراف الأسنان، والخضم بأقصى الأضراس. [٢٠]

وجاء عن العرب قولهم: "قد يدرك الخضم بالقضم" أي قد يدرك الرخاء بالشدة، واللين بالشظف، وقولهم: " يخضمون ونقضم والموعد الله" فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

ومنه كذلك النضح للماء والنضخ، والثاني أقوى، قال تعالى في سورة الرحمن: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} فجعلوا الحاء لرقتها للماء الخفيف والخاء لغلظها لما هو أقوى.[٢١]

ومن ذلك قولهم القد طولا والقط عرضا؛ لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعا له من الدال.

ومن ذلك أيضا الخنن في الكلام أشد من الغنن، والخُنّة أشد من الغُنّة، والأنيت أشد من الأنين، والرّنين أشد من الحنين.[٢٢]

ومن ذلك أيضا: "هذا صوغ هذا" إذا كان على قدره، وهذا سوغ هذا إذا ولد بعد ذاك على أثره.

ومنه أيضا: نَقَب على قومه ينقب نقابة من النقيب وهو العريف ونكب عليهم ينكب نكابة، وهو المنكب وهو عون للعريف.[٢٣]

وعن السيوطي أن الأصمعي قال: "من أصوات الخيل: الشخير والنخير والكرير فالأول من الفم والثاني من المنخرين، والثالث من الصدر. وقال: الهتل من المطر أصغر من الهطل".[٢٤] وفيه أن التاء أقل شدة من الطاء.

والعطعطة بإهمال العين: تتابع الأصوات في الحرب وغيرها والغطغطة بالإعجام صوت غليان القدر وما أشبهه.

والجمجمة: أن يخفي الرجل في صدره شيئا ولا يبديه. والحمحمة بالحاء: أن يردد الفرس صوته ولا يصهل.

والدحداح بالدال: الرجل القصير البدين. والرحراح بالراء: الإناء القصير الواسع.

ورجل دَحْدَح بفتح الدالين وإهمال الحاءين: القصير، ورجل دُخدُخ بضم الدالين وإعجام الخاءين: القصير الضخم.

والجفجفة بالجيم: هزيز الموكب وحفيفة في السير. والحفحفة بالحاء: حفيف جناحي الطائر.

والجَرْجَرة بالجيم: صوت جرع الماء في جوف الشارب. والخَرْخَرة بالخاء: صوت تردد النفس في الصدر، وصوت جري الماء في مضيق.[٢٥]

كما نرى أن الكلمة إذا كانت ثقيلة كان هذا الثقل يصور معناها بدقة وذلك كما في قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ}[٢٦]

فنلحظ أن كلمة (اثاقلتم) فيها ثقل مكتوم في نفوسهم وهو عدم محبتهم للمشاركة في الجهاد.

ومثل ذلك في اختيار اللفظة الغريبة نحو قول عيسى بن عمر النحوي عندما وقع على حماره واجتمع حوله الناس فقال لهم: "مالكم تكأكأتم علي أي (اجتمعتم) وبكلمة أخرى (افرنقعوا) أي (انصرفوا).[٢٧]

فالكلمتان: (تكأكأتم و افرنقعوا) معناهما غير واضح، ويُحتاج إلى تنقيب عنهما في كتب اللغة .

ومن هذا أيضا قول العجاج:

وقلعة وحاجيا مزججا وفاحما ومرسنا مسرجا[٢٨].

فـ "مسرج" كلمة غريبة غير واضحة.

النبر[٢٩] ودلالته والتنغيم[٣٠] .

النبر هو الضغط على مقطع خاص من مقاطع الكلمة، ليجعله بارزا في السمع دون سواه من مقاطع الكلمة.

أما التنغيم أو النغمة الكلامية فهو رفع الصوت وخفضه أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة .

ومثل ذلك: كلمة (تكتب) فهذه الكلمة يمكن أن تدل على معان مختلفة بواسطة التنغيم، تقول "تكتب؟" وتريد للاستفهام. .

وتقول: "تكتب ! " بتنغيم يفيد التعجب. .

وتقول: "تكتب" وبتنغيم يفيد الأمر.

ومثل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالي في سورة يوسف:

{قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ٧٤ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}

فإنا نلحظ الفرق في التنغيم بين (فما جزاؤه) التي هي بنغمة الاستفهام لتعطى دلالة الاستفهام وبين (فهو جزاؤه) التي هي بنغمة الإقرار لتعطي دلالة بنغمة الإقرار.

ومثل ذلك في التعبير فكلمة التسبيح: "سبحان الله!" فمن الممكن أن تكون للتعجب الحقيقي، ومن الممكن أن تكون للتعجب الإنكاري، والذي يُفرق بينهما في الدلالة هو طريقة التنغيم.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تُحبُها: قلت بهرا * * * عدد الحصى والرمل والتراب.

على الاستفهام أي: أتُحبُّها.

ومن مظاهر الدلالة الصوتية، الوقف. فقد يكون للوقف دور في تنوع الدلالة ففي قوله تعالى في سورة يس: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} فالوصل بين كلمتين: "مرقدنا. وهذا" يعطي دلالة أن من قال: "من بعثنا من مرقدنا" هذا هو نفسه الذي أجاب: "هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون". لكن الوقف على كلمة (مرقدنا) يعطي دلالة أن الآية كلها هي جدالٌ بين طرفين. . أحدهم يسأل، والآخر يجيب.

المقطع الصوتي " المورفيم" والدلالة.

لكلّ لغة نظامها، وأشكال نظام المقطع الصوتي للعربية هي: قصير[٣١]وطويل[٣٢] وطويل مقفل بصامت، ومديد مقفل بصامت، ومديد مقفل بصامتين .[٣٣]

والمقطع الصوتي يشمل السوابق واللواحق[٣٤] فمثال السوابق أحرف المضارعة للدلالة على الاستقبال، ومثال اللواحق الضمائر المتصلة .

ويعرف المورفيم بأنه أصغر وحدة صوتية ذات أثر في المعنى وينقسم إلى: مورفيم حر، وهو: الذي يمكن استعماله بمفرده. ومورفيم مقيد، وهو: الذي لا يجئ منفردا بل متصلا بمورفيم آخر ومثال ذلك كلمة (رجلان) المكونة من مورفيم حر (رجل) ومورفيم (مقيد) إن علامة التثنية.

الوحدة الصوتية "الفونيم" والدلالة [٣٥]

يطلق الفونيم على الوحدة الصوتية التي تشكل أساس النظام الصوتي للغة وذلك مثل دلالة الضمة على المتكلم والفتحة على المخاطب والكسرة على المخاطبة في ضمائر الرفع، (كتبتُ، كتبتَ، كتبتِ) ومثال ذلك دلالة الضمة على البداوة والكسرة على الحضر في اللغة العربية.

وفي ذلك يقول توفيق شاهين في كتابه: "علم اللغة العام" "إذا رويت لنا كلمة بروايتين إحداهما تشتمل على ضم في موضع معين من هذه الكلمة والأخرى تتضمن الكسر في نفس الموضع من الكلمة والأخرى تتضمن الكسر في نفس الموضع من الكلمة رجحنا أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمي إلى البيئة البدوية وأن المشتملة على الكسر تنتمي إلى البيئة الحضارية ومن ذلك كلمة (أسوة) (إسوة) وبهما قُرِئ وكذلك (قدوة) و(قدوة) بضم القاف وكسرها"[٣٦]

وكما أن القبائل البدوية تميل إلى الضم وهذا مظهر من مظاهر الخشونة فهي تميل إلى أيضا إلى الأصوات الشديدة والمجهورة بعكس الحضر الذين يميلون إلى الأصوات الرخوة والمهموسة مثل: فاضت نفسه (صوت شديد) وفاظت نفسه (صوت رخو) ومن ذلك ذلك قراءة ابن مسعود عتّى حين في "حتّى حين".[٣٧]

على أن المستوى الصوتي لا يقوم منفردا وإنما لابد أن تتشكل كل المستويات ضمن هالة واحدة لإعطاء الدلالة الناطقة بذلك.[٣٨]

وبما أن دراسة الأصوات تقوم على شقين: أحدهما يختص بالأصوات نفسها والآخر يبحث في وظيفة هذه الأصوات أثناء عملية الكلام، وبما أنها لها وظيفة في عملية الكلام فلذلك لها تأثير في الدلالة العامة للمنطوق والمعنى العام.

فاللفظة تتكون من وحدات صوتية (فونيمات) وهذه الوحدات الصوتية حين تنتظم في سياق لغوي معين تعطى معنى معين، وحين يتغير السياق تعطي معنى آخر.

ولم يغفل العقاد ذلك في كتابه "أشتات مجتمعات في اللغة الأدب" عند حديثه عن دلالات الحروف العربية حين جعل لكل حروف دلالة تناسبه حسب موقعه من الكلمة فقال: " فالحاء مثلا من الحروف التي تصور معنى السعة بلفظها ووقعها في السمع ولكن على حسب موضعها من الكلمة ومصاحبة ذلك الموضع للدلالة الصوتية، وليست دلالتها هذه مصاحبة للفظها حيث كانت في أوائل الكلمات أو أواسطها". [٣٩]

وأردف العقاد: "فالحكاية الصوتية واضحة في الدلالة على السعة حين يلفظ الفم بكلمات "الارتياح والسماح والفلاح والنجاح والفصاحة والسجاحة والفرح والمرح والصفح والتسبيح والترويح" والسبح والروح". [٤٠]

كما تعطي الحاء الدلالة نفسها إذا وقعت متوسطة نحو "البحر، والرحب والبحث، والنحت"

ويضيف العقاد: "فالميم مثلا في أواخر الكلمات تدل دلالة لا شك فيها عند الاستماع إلى كلمات "الحتم والحسم والجزم والحطم والختم والكتم والعزم والقضم والقطم والكظم "وأمثالها كلمات لا تخلو من الدلالة على التوكيد والتشديد والقطع الذي يدلل على المعاني الحسية كما يستعار أحيانا لمعاني القطع بالرأي والإصرار على العزيمة. وحرف السين على نقيض الميم لدلالته على المعاني اللطيفة كالهمس والوسوسة والنبس والحس والمساس والاقتباس". [٤١]

غير أن دلالته تنتقل من المعاني اللطيفة إلى ضدها إذا تغير موقعه من آخر الكلمة كما مثلنا إلى وسطها وجاء بعده الراء نحو: الكسر والقسر والعسر والأسر والخسر.[٤٢]

وقد أقمت النظر فيما ساقه العقاد وأشار إليه من قبله غيرُه. فوجدته فيه غير شاهد، وأورد فيما يلي نصيبًا منه على سبيل المثال:

فصوت الباء مثلا إذا كان أولا فدلالته أقرب إلى الشدة لا سيما إن كان على زنة "فعل" ومن ذلك: بأس، بلاء، برد، بتر، برص، بخل، بعث، برق، بصق.

وإن كان على زنة "فعالة" فدلالته أقرب إلى الخير نحو: براءة بساطة بسالة بشارة.

وإن وقع ثانيا مضاعفا فدلالته أقرب إلى النعمة لا سيما الأسماء نحو: رَب، رِبّي، أَب حُب، حَب.

أما إن جاء آخر الكلمة فدلالته أقرب إلى الخوف والكراهية نحو: رعب، تعب حوب، ذنب، ذئب، جذب، سغب، سلب، شيب، حطب، صخب، صلب.

وصوت التاء إذا كان أول الكلمة فدلالته أقرب إلى النعمة نحو: تبر (الذهب غير المضروب) تبن، تحفة، ترعة، ترس، تفث، تمر، تين.

وإن وقع وسطا فدلالته أقرب إلى القطع نحو: بت، بتر، حت، حتم، كتم، ختم، ختن يتم.

أما إن جاء آخر الكلمة فدلالته أقرب إلى الثبات والسكون نحو: ثبت، سكت، كبت.

وصوت الثاء إذا كان أولا فدلالته أقرب إلى القسوة نحو: ثأر ثرد ثقب ثقل. .

وإن وقع وسطا فدلالته أقرب إلى اللجم نحو: جثم. لثم.

أما جاء آخرا فدلالته أقرب إلى النفور؛ نحو: جدث، حرث، حنث، خبث، عبث، عنث، روث، غوث، موث (ذوبان).

وصوت الجيم. إذا كان أولا فدلالته أقرب إلى الضيق والألم نحو: جُب جُحر جثم جدث جذب جرب جرح جرم جزع جفل جهل جور جذم (مقطوع اليد).

وإن وقع وسطا فدلالته أقرب إلى الضرب: لجم رجم هجم. أما إن جاء آخرا فدلالته أقرب إلى الخلط أو العيب نحو: زج، حج، زوج، مزج نسج، هرج، مرج، عرج، عوج، سمج.

غير أن ذلك ليس بقاعدة تُعمم وتطرد، بل هو - على التحقيق - ظاهرة دون الاطراد والتعميم، فلا غرو أن نجد ألفاظا كثيرة على نسق ما سقنا تخالف وتشذ، فإذا كانت قواعد اللغة على أصلها فيها من الشذوذ ما يكاد يكون قاعدة لوحده. . فمن الطبيعي في الظاهرة وهي في بعض دون بعض المخالفة والعكس.

تلك كانت دلالة الصوت الواحد منفردا، والشيء نفسه للأصوات مجتمعة فالهمزة والكاف واللام مثلا تجمعها على الرجحان دلالة واحدة وهي دلالة النعمة(أ ك ل) (ك ل أ) أي الأكل والكلأ .

وكذلك الأمر في أصوات (الباء والحاء والراء) فإنها تدل مجتمعة على الامتداد والسعة نحو: (بـ حـ ر) فهذه الأصوات منتظمة في سياقها السالف تعني الامتداد والسعة فإن أنت غيرت فيها ترتيبا نحو: (ر حْـ ب) فإنك تلحظ تغير دلالتها، وكذلك في (حـ ر ب) وكذلك في (ر بْـ ح) وفي (حـ بْ ر) وفي (ب رْ ح).

لكن إن أنت تدبرت معنى كل منها تجد أنها تشترك في دلالة عموم واحدة ألا وهي دلالة السعة، فـ (رحْب) صفة لسعة الصدر، و(حرب) فيها اتساع دائرة المعارك وطولها إذ هي ليست معركة واحدة ولكن معارك عديدة في زمن ممتد، و(رِبْح) فيها بسط الثروة والانبساط سعة، و (حبْر) فيه سعة العلم، و(برْح) فيها سعة الترويح، وكذلك أصوات الباء والراء (بَ ر) (بِ ر) (بُ ر) (رَ ب) (رِب) فإن لكل منها دلالة ليست في الأخرى ومع ذلك يجمعها دلالة عمود واحدة وهي دلالة النعمة والخير.

وربما يتغير أحد الأصوات لتتغير الدلالة شدّة أو لينا، فمثلا أصوات:

(خـ ضـ م) تعطي دلالة الأكل الرطب كالبطيخ والحلواء ونحوها، أما أصوات (قـ ضـ م) فهي كذلك تعطي دلالة الأكل ولكن للصلب واليابس. أما كلمة (هـ ضـ م) فإنّها تعطي دلالة على إدخال الطعام إلى جوف البطن.

ومرد ذلك أنّ صوت الخاء مهموس لذلك كان للأصناف الرطبة اللينة وصوت القاف صوت مجهور فكان للأصناف الصلبة اليابسة. أما صوت الهاء فهو أكثر ليونة من القاف والخاء، فبذلك كان الهضم أكثر سهولة من القضم والخضم.

أما على مستوى الجملة فإن الدلالة تتباين من تركيب إلى آخر، فحين نقرأ قوله تعالى من سور فاطر: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} فنسمع الضمة آخر ما ينطق في كلمة العلماء، فيدل الضم بذلك على من يقوم بالخشية؛ لأنّ الخشية في حقيقتها هي انكسار النفس وضم أعضاء الجسد؛ لكنا نسمع الفتحة على آخر ما ينطق من كلمة الله فيدل النصب بذلك على العلو والارتفاع.

وكذلك في قوله تعالى في سورة التوبة: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}

نلحظ أن الضمة في (رسولُه) تعطي دلالة أن الرسول بريء من المشركين أيضا فالبراءة من شيء هي البعد المطلق عنه، ولا يناسب البعد المطلق من الأصوات إلا الضم لأن الضم في حقيقته عكس الانفتاح عن الشيء.

وختاما. . فإنا نخلص إلى نتائج نوجزها في الآتي:

أن الأصوات العربية قد استوعبت في منظومتها الدقيقة أصوات الإنسان كلها من الحلق وحتى اللسان والشفة، وتلك مزية تحسب لها وحدها فأغلب لغات البشر - إن لم تكن جلها - خلت على أقل تقدير من الأصوات الخلقية.

ومن النتائج المستقاة من البحث أيضا بحيث يكاد يكون طبيعيا الارتباط المنسجم الوثيق بين أصوات الكلمة ودلالتها.

ومن النتائج أيضا أن الأصوات العربية لا تتساوى في الدلالة؛ بل تختلف باختلاف طبيعتها وقوتها وموقعها في الكلمة وبروزها في الحكاية الصوتية.

ومن النتائج الطالعة كذلك. . أن العبرة بموقع الصوت من الكلمة لا بمجرد دخوله في تركيبها.

ومن النتائج المحققة أيضا أن الاستثناء في الدلالة قد يأتي من اختلاف الاعتبار والتقدير ولا يلزم أن يكون شذوذا في طبيعة الدلالة الصوتية.

وعلى العموم. . فإن للأصوات العربية دلالات منسجمة معها قلّ ما تكون في غيرها من اللغات إن لم نقل بالعدم مطلقا؛ وذلك من تماما وكمالها، وليس من شكٍ في أن ذلك من جملة الأسباب التي ساندتها في ثباتها أمام التحوّلات اللغوية والمتغيرات الزمنية عبر تاريخ الإنسانية الطويل والتي لم تنجُ منها لغة إنسانية أخرى.

وتلك هي العربية، لسان يوافقه بيان، ونُطقٌ ترسمه كتابه، وتعبيرٌ تجسده أداة، ومن قبل ذلك كلِّه. . صوتٌ تحاكيه دلالة.

الهوامش:

١ محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، ص٢٠١. بتصرف.
٢ وهو: ما ظهر من الغار الأعلى من الفم، وحروفه: الطاء والدال والتاء، وتسمى الأحرف النطعية ومنه التنطع في الكلام.
٣ وهي: العين والغين والحاء والخاء والهمزة والهاء.: سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٣.
٤ إبزاهيم أنيس، الأصوات اللغوية. ص٦. بتصرف.
٥ ابن جني. سر صناعة الأعراب. ص ٦.
٦ نفسه. ص ٧.
٧ مصطفى صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب١/ ٩٣. بتصرف.
٨ علي فهمي خشيم، العرب والهيروغليفية. ص١١.
٩ سورة لقمان. آية ١٩.
١٠ سورة النساء ٤٦، والمائدة آية ١٣.
١١ وهذه الأنواع فيها الشديد المجهور؛ وحروفه ستة، هي: (ء ق ط ب ج د)، وفيها الشديد المهموس بحرفين هما: (ك ت)، وفيها الرخو المجهور، وحروفه ثمانية هي: (ض ظ ذ غ ز ا و ي)، وفيها الرخو المهموس، وحروفه ثمانية هي: (هـ ح خ ش س ص ث ف)، وهذه الثمانية هي الحروف المهموسة خلا الكاف والتاء.
١٢ سيبويه، الكتاب، ٥٧٣/٤ ــ ٥٧٤.
١٣ المصدر السابق، ٥٧٣/٤.
١٤ ابن منظور، لسان العرب. ج٢ ص٢٠٦-٢٠٧.
١٥ الطاهر أحمد الزاوي مختار القاموس. ص٢١٦ .
١٦ أحمد رضا. معجم متن اللغة.م٢ .ص٤٤٣.بتصرف.
١٧ أحمد مختار عمر. علم الدلالة. ص١١ .
١٨ نور الهدى لوشن، علم الدلالة دراسة وتطبيقا. ص٢٧ .
١٩ نفسه ص٣١ .
٢٠ السيوطي. المزهر في علوم اللغة. ج١ ص٥٠.
٢١ نفسه. ٥١.
٢٢ نفسه.
٢٣ نفسه.
٢٤ نفسه. ص. ٥٢.
٢٥ نفسه.
٢٦ سورة التوبة الآية: ٣٨.
٢٧ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني، ص١٠.
٢٨ نفسه.
٢٩ النبر هو قوة التلفظ النسبية للصائت في أيّ من مقاطع الكلمة ، وهو عند القدامى بالهز.
٣٠ التنغيم : هو نمط لحني يصاحب الجملة ولابد أن يؤثر في المعنى مثل قولنا: ما أحسن محمدًا! (تعجب) ما أحسن محمد؟ استفهام. ما أحسن محمد (نفي).
٣١ المقطع القصير وهو كل حرف غير مصوت لمد أو حركة ، اتبع بصوت قصير نحو : (م) مثلا الحرف وحركته (صمات+صائت)
٣٢ المقطع الطويل: وهو كل حرف غير مصوت مذ أو حركة قرن بمصوت طويل مثل : (ما)
٣٣ نور الهدى لوشن، علم الدلالة دراسة وتطبيقا. ص٧٥.
٣٤ السوابق وهي جمع سابقة وهي زائدة تسبق الجذور وترتبط به ارتباطا وثيقا حتى يصبح وراه كلمة واحدة. أما اللواحق جمع لاحقة ، وهي زائدة تلحق الجذر وترتبط به ارتباطا وثيقا .

٣٥ الفونيم هو مفهوم مجرد في الذاكرة يخيل إليك صورة الحرف الذي تنطقه.
٣٦ توفيق شاهين. علم اللغة العام . ص١١٦ .
٣٧ نفسه.
٣٨ نور الهدى لوشن. علم الدلالة دراسة وتطبيقا. ص٨٣.
٣٩ عباس العقاد. أشتات مجتمعات. ص ٣٢.
٤٠ نفسه. ص ٣٣ . أقول: وكذلك البوح والربح والسرح والصبح والمذح والملاحة والنكاح والنزوح. . ونحوها.
٤١ نفسه ص ٣٤.
٤٢ أما اليسر والجسر فدلالتهما غير ذلك فما نورده في بحثنا هذه نعده ظاهرة لغوية وليس قاعدة مطردة في كل الكلمات. أما لماذا الياء والجيم شذتا لأنهما توأم في اللغة فمخرجهما واحد وهو الغار، وكلاهما مجهور والإبدال بينهما شائع، فمن العرب من يجعل الياء جيما يقولون في تميميّ تميمِجّ، ومنه قول الراجز:

خالي عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج. يريد أبو علي و بالعشي. .

كما نجد في كلامهم العكس وهو إبدال الجيم ياء فيقال: في صهريج، صهريّ. ومن ذلك ما رواه السيوطي في كتابه المزهر عن أبي حاتم السجستاني أنّ أعرابية أنشدت

إذا لم يكن فيكن ظلٌّ ولا جنى فأبعدكن الله من شيرات. . تريد الشجرات.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- ابن منظور. لسان العرب. دار صادر بيروت.لبنان. ١٩٩٧
٣- سيبويه، الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى دار الجيل، بيروت. ١٩٩١.
٤- أبو الفتح عثمان بن جني. سر صناعة الإعراب. دار القلم. تحقيق د. حسن هنداوي.
٥- عبد الرحمن السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. مكتبة التراث. القاهرة.
٦- محمد حسن عبد العزيز. مدخل إلى علم اللغة، جامعة القاهرة. ١٩٩٨.
٧- توفيق شاهين. علم اللغة العام. دار التضامن. القاهرة. ١٩٨٠.
٨- مصطفى صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب. المكتبة العصرية. بيروت. ٢٠٠٤.
٩- عباس محمد العقاد. أشتات مجتمعات في اللغة والأدب. نهضة مصر. القاهرة ١٩٩٥.
١٠- إبراهيم أنيس. الأصوات اللغوية، الطبعة الرابعة. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١.
١١- الخطيب القزويني. الإيضاح في علوم البلاغة: الشركة العالمية للكتاب. لبنان. ١٩٨٩.
١٢- الطاهر أحمد الزاوي. مختار القاموس، دارا لعربية للكتاب. د.ط.
١٣- أحمد رضا. معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة. مكتبة الحياء. بيروت ١٩٥٨.
١٤- أحمد مختار عمر. علم الدلالة.عالم الكتب. القاهرة. ١٩٨٨.
١٥- علي خشيم. العرب والهيروغليفية. مركز الحضارة العربية. القاهرة. ٢٠٠٦.
١٦- نور الهدى لوشن. علم الدلالة دراسة وتطبيقا. منشورات جامعة قاريونس. ١٩٩٥.